لو كنت الـــرافعي !

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

كنت أقرأ بعض كتابات الرافعي رحمه الله في بعض أعداد الرسالة حركني إلى قراءتها أني وقعت على « وحي القلم » في مجلد واحد نسيه الأستاذ عزام عند الدكتور الدرديري في جمعية الشبان المسلمين، فأخذته أجيل الطرف فيه، وكان كتابي وحي القلم قد استعاره أخ لي فلم أقرأه مجموعاً وإن قرأت أكثره متفرقاً في « الرسالة »

قرأت من تلك المقالات الحسان مقالة « دعابة إبليس » ولقد ضحكت لبعض تصويره للمواقف ما لم أضحكه من زمن طويل؛ وسرني أن إبليس شغله الأوربيون يوم الأحد فترك الرافعي يكتب هذا المقال بعد أن ظل يحاوره ويداوره ويماجزه حتى كاد يعجزه، لولا أن الأوربيين لم يتركوا له وقتاً يوم الأحد !

ورجعت إلى المنزل أردد هذا المقال في خاطري وأجد له تطبيقات وتوجيهات عندي . ومن ذا الذي لا يشاغله إبليس ويماجزه فيما يروم وفيما يحاول ؟ ومن ذا الذي لا يسخر منه إبليس إذ يخدعه المرة بعد المرة عن الشيء بعد الشيء بنفس الطريقة وبنفس النتيجة ؟ ومن ذا الذي كلما خدعه إبليس مرة لم يزل يرجو ويؤمل أن تكون تلك آخر مرة ثم يقع في نفس الشرك الذي وقع فيه من قبل — وهو يعلم أنه قد وقع من قبل فيه — يستزله الشيطان بالأمل والرجاء حتى يقع ؟... كلنا ذلك الرجل. فليس فينا مثلاً من لم يخدع مرة بعد المرة عن صلاة العشاء وهو متعب لينام، أو لكي يؤديها بعد في جوف الليل فيجتمع له بذلك مع الفريضة التهجد ، فينام ولا يقوم — إن نام — إلا بعد الفجر . وليس فينا من لم يخدع عن الفجر ، بل عن الصبح بتسويفه القيام خمس دقائق يتذوق فيها في يقظته بقية الراحة التي كان يجدها في نومه أو ليهدأ فيها جسمه ، أو ليجف فيها عرقه ، فلا يستيقظ بعدها إلا عند طلوع الشمس . كلنا ذلك الرجل على اختلاف تجاربنا مع الشيطان . وللشيطان طريقته في خدع كل إنسان ، لكنني لا أشك في أنه وإن اختلفت خدعه وطرائقه التي يستزل بها الناس، لا يزال يسوي بينهم جميعاً في شيء واحد هو كرّه على الواحد منهم المرة بعد المرة بنفس الأسلوب وبنفس النتيجة؛ فإذا خطر لأحدهم في موقف وقفه من قبل أن هذا من الشيطان وأن الشيطان خدعه بهذا من قبل فقوت عليه غرضه ، مهد له الشيطان سبيل الانخداع عن طريق الرجاء وأوقع في نفسه أنه إن يكن فاته ما فاته في الماضي فإن ذلك لن يفوته هذه المرة فسيستيقظ أو سيكتب أو سيعمل عمله الذي ينوي ، ولكن فقط بعد أن ينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ مما هو فيه من موقف في قصة أو في لعبة أو في حديث . فينام أو يهدأ أو يستريح أو يفرغ ولكن غالباً مع تفويت ما كان يعني به نفسه أن يعمله بعد النوم أو الهدوء أو الراحة أو الفراغ . وهكذا دواليك. وليس أعجب في المعارك بين خصمين من هذا النوع من الخدع والانخداع بين الشيطان والإنسان ، فلو وزن كيد الشيطان هذا بأي ميزان غير ميزان الإنسان لشال فيه أقبح الشيل . وما كان للشيطان أن يغلب الإنسان أبداً بهذا النوع من الكيد بادي الضعف لولا أن الإنسان يعين الشيطان على نفسه بتصديقه إياه فيما قد ثبت له بالتجربة أنه يكذبه فيه . وما أظن الحديث الشريف : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » إلا منظوراً فيه في باطن الأمر إلى سد هذا الباب من كيد الشيطان وهو أوسع أبواب كيده . ولكن ما أبعد الإنسان من الوجهة العملية عن صفات الإيمان !

رجعت إلى المنزل ولمقال الرافعي هذا صدًى يتردد في قلبي وذهني . وكنت أجد في نفسي إعجاباً بطريقته في التصوير وحنكته في التعبير وغوصه في التفكير . وكانت طرفة الطرف عندي في ذلك المقال الطريف خاتمته حين اشتد عجب الرافعي من ترك إبليس إياه يوم الأحد ، يوم عطلة الأوربيين كأنهم لم يتركوا له وقتاً ! وهي مفاجأة لم يكن يتوقعها القارئ ، تدل على لطف ما للرافعي من فن . وتصورته وهو يكتب جاهداً ليفرغ من مقاله قبل أن يسترد إبليس بعض وقته الذي استغرقه الأوربيون ذلك اليوم ! وإذا كنا كلنا سواء في الانخداع لإبليس فلسنا كلنا سواء والرافعيُّ في عدم الإلقاء إلى إبليس باليدين وفي التيقظ له وانتهاز الفرصة منه إن لاحت كما انتهز هو انشغال إبليس بالأوربيين يوم الأحد فكتب — رحمة الله عليه — للرسالة ذلك المقال الطريف

دخلت المنزل وفي النفس ميل إلى القراءة فذهبت إلى أعداد الرسالة أتلمس ما كتب الرافعي فيها . وقبضت منها قبضة فإذا بيدى الأعداد ١٣١ إلى ١٤٠ فقرأت مقالة « اجتلاء العيد » ، وكنت وأنا أقرأه أعجب لانثيال كريم المعاني على ذلك العقل ، وانحياز نبيل العواطف إلى ذلك القلب ، أو بالأحرى تجدد عجبي مما جمع الله للرافعي رحمه الله من حظ في عمق الفكرة ونبل العاطفة ودقة العبارة ، وعجبت لبعض من لا يقدرون الرافعي كيف لم يقرأوا له ، أو كيف وقد قرأوا لم يقدروا ما كتب عن الطفولة يوم العيد في مقالة « اجتلاء العيد »

ثم أخذت في قراءة المقال الثاني من مقالات المشكلة ، انظر إلى استخراجه معنى النيب من كلام المصلح المنتظر ، ونابغة القرن العشرين ، وإذا بصوت أسمعه رفع عيني وأرهف أذني ، وأصغيت أتسمع ذلك الصوت ولآخر يجيبه ، ولم يستغرق الصوتان إلا هنيهة أرخيت بعدها جفني أتأمل رنين الصوتين في نفسي فوجدتها مهتزة بمعان شعرت أني لا أحسن تصويرها لو حاولت . فقلت : قضية ولا أبا حسن لها . لو كنت الرافعي !

وكان الصوت ينادي : « ما ـ ما » وكان الذي يجيبه صوت أمه هبت من منامها تقول : « نعم ـ حاضر » وقد رشح الصوتان إلي من خلال الجدار

كان الصوت صوت ابني المريض قد تماثل للشفاء بحمد الله ينادي أمه لبعض شأنه ، فكان جوابها ذينك اللفظين تفصل بينهما لحظة . وكان أحد اللفظين جواباً على النداء الذي سمعت ، والثاني على الطلب الذي لم أسمع ؛ وكان حس حركة في الغرفة يشير إلى بقية الجواب . وكان للنداء والجواب وقع في نفسي وشجن لا عهد لي به . ولست أدري أهي الرقة التي يجدها الوالد لطفله المريض ، أم هي روح الرافعي في ما قرأت وفي ما كنت أقرأ هيأت نفسي فازداد تأثرها بذينك الصوتين حتى جاشت لها ؛ لكن الذي أدريه أني لو كنت الرافعي في ساعتي الحاضرة لأخرجت للناس من خير ما أخرج لهم رحمة الله عليه في « وحي القلم »

محمد احمد الغمراوي

من أسبوع العروبة والإسلام بالعراق

رسول المجد[1]

للأستاذ عبد المنعم خلاف

يا مجد مولانا محمد ! لقد فنيت في تصويرك ألفاظنا المسموعة والمقروءة ، ولكن كلماتنا النفسية الهائلة بقيت كما هي مكتومة لم يقرأها الناس ولم يسمعوها ...

وهأنذا أسأل قلمي الميت الجامد التافه ... ومدادي الأسود المظلم ، أن يعينا على تصويرك أيها المجد ، وتصوير فتنة النفس وسحرها بك ...

ولكن تُرى هل القصب الميت يتكلم ... والحبر الأسود ينير ؟ تُرى هل تسمح الأقدار أن نكشف العلاقات الخفية بين نفوسنا وبينك على ضيقنا ورحابتك ؟

هيهات . هيهات ... فإن تلك منطقة حرام على النطق والتصوير بالكلام !

* * *

يا مجد محمد ! تجسم تجسم بأشكال القرن العشرين وأثوابه .. أخرج من الكتب والتاريخ مرة أخرى ... عُدْ عجيباً غريباً كما بدأت غريباً عجيباً ... كن أجساداً تمشي على الأرض في أشخاص أبنائك الذين أضواهم جوعهم إليك ... كما تمثلت في أجساد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسين وخالد وسعد والمثنى وابن عبد العزيز وعلي الرضا والرشيد وصلاح الدين وغيرهم وغيرهم من الرجال المصابيح الذين لم تر لهم الدنيا شبيهاً إلا تحت جناحك ..

يا مجد محمد ! إنك مجد دنيا عاجلة فانية يحن أبناؤها إليها ويحبون أن يتحدثوا عنها أحاديث البطولة والجيوش والقواد والعلماء وفتوح الأقلام وفتوح السيوف ...

كما أنك مجد دين وروح وأخرى وملكوت خفي يتصل بالنبوة والرسالة وما وراء الطبيعة ... إنك مجد الظاهر والباطن والمعلن والخفي ...

(١) ألقيت في حفلة جمعية الهداية الإسلامية مذاعة بالراديو العراقي